نظرية الحضارة عند ابن خلدون

بالتمعن في طبائع العمران والاجتماع البشري في شتى ميادينه، عبر كتاب المقدمة، توصل ابن خلدون الى صياغه نظريته حول الدولة (كمصطلح بديل عن الحضارة كما يرى ذلك مالك بن نبي) وهو يعطي الدولة عمرا كعمر الانسان: ضعف فقوة فضعف. وهذه المراحل هي:

مرحلة البداوة: وهي أصل الحضارة، تقوى فيها عصبيه القبيلة والحمايةز

مرحلة الحضارة: والترف أو ما يسميه ابن خلدون بمنتهى العمران واستبداد الحاكم واستكانة الرعية، في هذه المرحلة تتأسس الدولة ، اذ تقوى عصبيه القبيلة فتنزع نحو الثبات والاستقرار فتعمل على توحيد سلطتها في شكل حكومة وهي وسيلة تأسيس المدن، حيث تزع الناس بوازع الحكم، سواء كان هذا الوازع دينيا ممثلا في الخلافة أو دنيويا ممثلا في الحاكم. ويضع ابن خلدون مجموعة من الشروط عند بناء المدن او تأسيس الدولة:

أولا شرط الأمن والحماية.

ثانيا شرط الرعاية الصحيه للسكان من الهواء النقي والماء والموقع الاستراتيجي.

وفي المدينة تتقدم الحضارة تبعا لثلاثة مزايا جوهرية، هي:

أولا: مزايا الأرض أو عامل التراب وهو محل استخراج المواد الأولية.

ثانيا: مزايا الحكومة وهو ما يجب توفيره للسكان من الحماية والعدل في تقسيم الفرص والموارد، هذه المزايا يتحرك وفقا لها السكان وهم يخلقون الحضارة خلقا بعد خلق، في مراحل صناعية تبدأ من الصناعات الضرورية، كالزراعة والنسيج

وصولا الى صناعة وسائل الترف تبعا لحاجات السكان وكذا الصناعات الفكرية كصناعة الورق والخط وعلوم اللسان .

نظرية مالك بن نبي الحضارية

-فكرة الدورة-

ينطلق مالك بن نبي في بناء نظريته حول الحضارة من نفس المعمل الذي انطلق منه ابن خلدون أي من التاريخ باعتباره مخبر التجارب والصورة التطبيقية للسنن الاجتماعية.

ويؤسسك ابن نبي نظريته على مبدأ الدورة او الحتمية التاريخيه أو مبدأ السُّننية كما ذكرها القرآن الكريم: ((سنه الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنه الله تبديلا)) الفتح ايه 48 .وحول مبدأ الحتمية الحضارية يقول مالك بن نبي:" إذا نظرنا الى الاشياء من الوجهة الكونية فإننا نرى الحضارة تسير كما تسير الشمس فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب، ثم متحولة الى أفق شعب آخر" شروط النهضه صفحه 54 .وقد هداه فكره العلمي إلى وضع معادلته الكيميائية حول الحضارة وهي أن (الحضارة = إنسان + التراب + وقت) ويعمل الدين في هذه المعادلة دور **المركِّبِ** الذي يلحم العناصر في ما بينها، حيث يتفاعل الانسان أول الأمر مع الفكرة الدينية أو المنهج القرآني، ينطلق بعدها في تفاعل مع ما سخره له الله تعالى من الأرض.. وفي ظرف زماني معين (يصبح فيما بعد

إطارا تاريخيا) يبني الحضارة وفق منحنى بياني يوضحه مالك بن نبي في كتابه شروط النهضة.

مهمة الفكرة إخضاع غرائز الإنسان الفطري أو الطبيعي لعملية شرطية، وذلك بضبطها بقواعد نظام روحي معين وهذا ينتج لنا الطور الأول من اطوار الحضارة، وهو مرحلة الروح، ومع توسع المجتمع الاسلامي الروحي تظهر ضرورات جديدة ومقاييس مستجدة تذهب بالحضارة نحو منعطف جديد هو منعطف العقل، و هذه تسمى مرحله العقل، و فيها ازدهرت العلوم والفنون والنظم في الحضاره الاسلامية كما يرى مالك بن نبي. ومع علوّ سلطان العقل تبدأ الغرائز بالخروج تدريجيا من سلطة الروح لنصل إلى الطور الثالث من أطوار الدورة الحضارية وهو طور الغريزة، وهنا تنتهي الوظيفه الاجتماعيه للفكرة الدينية، يختل تفاعل الانسان مع المنهج القراني!

محاضرات مقياس: مدخل إلى الحضارة

السنة الثانية ليسانس لغة وحضارة

أ. فاطمة الزهراء جنّان

نظرية مالك بن نبي الحضارية

تابع - فكرة التوجيه-

إن بداية أية دورة حضارية تقتضي التحام الفكرة الدينية مع الانسان الطبيعي أو إنسان الفطرة كما يسميه مالك بن نبي، وهذه الفكرة الدينية تمثل في الحضارة الإسلامية المنهج القرآني المتكامل، والذي يسميه مالك بن ننبي بالمبدأ القرآني.

ينظُر بن نبي لهذا المبدأ نظرتين، الأولى تاريخية فيسرد تطبيقات المسلمين التاريخية المفصلية في الدورة الحضارية، منذ نزول الوحي وصولا إلى حادثة صفّين ثم عصر الموحدين وتبعاته التي لا زالت تعشش في واقعنا المعاصر..

أما النظرة الثانية فهي نظرة معاصرة، راهنة حول مدى إمكانية تطبيق المنهج القرآني وما يقتضيه هذا التطبيق من توجيهات أولية لعنصر الإنسان المسلم، في الدورة الحضارية.

-فكرة التوجيه:

هي فكرة لإعادة هيكلة إنسان ما بعد الحضارة أو الإنسان "المشوه حضاريا" لإعادته إلى " إنسان الفطرة" عم طريق توجيه ثلاثة عناصر من مكوناته الرئيسية، وهي:

الثقافة والعمل ورأس المال.

1-توجيه الثقافة:

عمل بن نبي على تقسيم الثقافة، بالانتقال بها من مفهومها العام كطابع سلوكي اجتماعي إلى مجموعة مكونات رئيسية، لتسهل عملية التوجيه، وهذه تاعناصر هي:

عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية

عنصر الجمال لتكوين الذوق العام

منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام

الصناعة بالمفهوم الخلدوني الشامل.

وقد ركز بن نبي على توجيه المحورين الأولين، لأنهما-بحسبه- عماد لبقية المحاور

***التوجيه الأخلاقي:**

يمثل بأصله الديني، المتلخص في قوله تعالى((وألّف بين قلوبهم))الأنفال 63 لُحمة المجتمع الإنساني وأساس صلاته التي ستنبع منها فيما بعد العلوم والفنون والصّناعات. يقول بن نبي: "وهكذا سنصل في النهاية إذا ما تتبعنا كل مظهر من مظاهر الحضارة... إلى الروابط الدينية الأولى التي بعثت هذه الحضارة"[1]

***التوجيه الجمالي:**

يمثل الذوق العام الذي يصدر عنه المجتمع، وهو في الحضارة الإسلامية يمثل "الإحسان" كصورة نفسية للجمال..

ومن خلال هذين العنصرية يكمن الفرق الجوهري بين الحضارتين الإسلامية والغربية، فبينما تقدم الأولى المبدأ الأخلاقي على الذوق الجمالي نجد الثانية وعلى العكس منها تقدم الذوق الجمالي على المبدأ الأخلاقي وهذا منعكس تماما في واقعهم، الفني بالخصوص!

***المنطق العملي:**

يتلخص توجيهه، في قول مالك بن نبي: " إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة(...) فالمجتمع الإسلامي اليوم لا يعيش طبقا لمبادئ القرآن بل إنه يتكلم تبعا لمبادئ القرآن"[2]

***الصّناعة:**

ويتم توجيهها بحسب بن نبي عن طريق إنشاء معهد للتوجيه الفنيّ ليحُلّ نظريا وعمليا المشكلة الخطيرة للتربية المهنية.. فكل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلون تدخل في مفهوم الصناعة.

---

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 96.

[2] نفسه، ص103.

2-توجيه العمل:

وذلك بتربية الفرد على فكرة العمل كقيمة اجتماعية للوقت، لتأتي بعد هذه القيمة، فكرة "الكسب" الشائعة.. والآيات القرآنية الدالة على قيمة العمل كثيرة. منها قوله تعالى((فاليوم لا تُظلم نفسٌ شيئا ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون)) يس 54.

3-توجيه رأس المال:

ويقصد بن نبي برأس المال "المال المتحرك" وهو الآلة الاجتماعية التي تنهض بالتقدم المادي، فاستغلال المواد الأولية ثم المصانع التي تحوّل فيها تلك المواد إلى سلع ومنتجات، ثم الأسواق التي تُصرف فيها تلك السّلع.. وما يخلق ذلك من مناصب عمل وعلاقات اقتصادية وقوة تمويلية.

نظرية تونبي الحضارية

-التحدي والاستجابة-

إن التاريخ الحضاري بالنسبة لأرنولد تونبي هو مجموعة من التحديات والاستجابات، التي تؤدي إلى ميلاد الحضارة ونموها ثم انحلالها وانهيارها.. بحسب طبيعة التحدي ونوع الاستجابة.

1-التحدّي:

إن السهولة(أو الترف بالتعبير الخلدوني) هي عدوّة الحضارة، وإن الظروف السّهلة لا الصعبة، هي تحديات تستثير في الأمم قيام الحضارات. والتحديات بالنسبة لتونبي أنواع:

*التحديات الطبيعية: وهي نوعان: تحدي الأرض الصعبة كما هو حال العرب في شبه الجزيرة العربية أو المجتمع المصري على ضفاف نهر النيل قبل الاستصلاح في زمن الحضارة الفرعونية. وكذا تحدي الأرض البكر أو الجديدة.

*التحديات البشرية: وهي ثلاثة أنواع:

حافز الضربات (الحروب)

الضغوط الخارجية.

النقمة الداخلية (الاجتماعية)

وهذه التحديات درجات: فهناك تحد ضعيف، وتحدّ قوي، وتحدّ متوسط، وهذا الأخير بحسب تونبي هو الوحيد الذي يحفّز على تحقيق استجابة ناجحة.

2-الاستجابة:

يتوقف ميلاد الحضارة على نوع الاستجابة التي تقدمها الفئة المبدعة أو الأقليّة الحاكمة، فتونبي كمالك بن نبي قد أعطى للفاعلية الإنسانية الدّور المحوري والرئيسي في توليد الحضارات.

مراحل الحضارة تبعا لنوع الاستجابة عند الأقلية الحاكمة:

نشوء الحضارة: إن الأقلية الحاكمة حين تقدم استجابة مبدعة ذات قوام أو طابع روحي نكون في مرحلة نشوء حضاري.

نمو الحضارة: وذلك حين تتكرر التحديات ومعها الاستجابات المبدعة.

انهيار الحضارة ثم انحلالها أو جمودها: و ذلك عند فقدان الروح المبدعة، والتحول إلى حالة التسلط والقهر من قبل الأقلية الحاكمة.

طبيعة المجتمع الحضاري أو المتحضر في نظرية التحدي والاستجابة:

هو مجتمع متناغم عن طريق استجابة الأكثرية (الشعب) للفئة الحاكمة بطريقة المحاكاة الآلية. ويلعب الدين في هذا المجتمع دور إنعاش الشعور بالواجب الاجتماعي.

طبيعة المجتمع المنهار حضاريا:

هو مجتمع منقسم إلى فئات ثلاثة:

*أقلية حاكمة مسيطرة ومستبدة.

*بروليتاريا داخلية أو شعب مقهور، يرنوا للثورة.

* بروليتاريا خارجية: منشقة عن المجتمع وترنوا للغزو الخارجي.

ولا يمكن إنقاذ الحضارة من الإنهيار-بحسب تونبي- إلى بعاملين اثنين، أولهما وقائي وهو التخلي عن الحروب والثاني بنائي وهو الرجوع إلى الدين، وذلك عن طريق حركة ثنائية تتمثل في (اعتكاف/ عودة)، الاعتكاف لأجل التزود الروحي، ثم العودة الفاعلة للتطبيقي المجتمعي، ويضرب تونبي مثالا على ذلك شخصية النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)[1].

[1] ينظر: زياد عبد الكريم النجم: تونبي ونظريته التحدي والاستجابة.

النّظم الإسلامية في صورتها المثالية

-الشريعة-

إن كلمة نظم هي جمع نظام، وهي تدل على كلّ شيء يراعى فيه التنظيم والانسجام والارتباط، ونُظُّم أية دولة تتكون من مجموعة القوانين والمبادئ والأعراف.. التي تنهض عليها حياة هذه الدولة وعلاقات الناس فيها.. ويمثل الإسلام (عقيدة وشريعة) قمة التصورات التي تنبني عليها تلك العلاقات، فالدولة الإسلامية قامت على أساس الشريعة، وقد كانت لهذه الشريعة السيادة القانونية المطلقة في المجتمع الإسلامي، وتتحدد حقوق الأفراد فيه و واجباتهم بموجب أحكامها المستمدة من نصوص القرآن الكريم بكافة تشريعاته الساعية لإقامة مجتمع التوحيد.

الدولة الإسلامية ⟵ نظام إسلامي قائم على الشريعة الإسلامية ⟵ الشريعة قائمة على النص القرآني.

خصائص التشريع القرآني:

هو تشريع يتميز بعدة خصائص تكفل له الثبات والصلاحية الدائمة وتميزه عن أي تشريع وضعيّ بشري، أو سماوي سابق كان صالحا لفترة زمنية محددة، وزالت صلاحيته الذاتية بسبب ارتقاء العقل الإنساني وتقدم الحياة البشرية. وأهم هذه الخصائص ما يلي:

1-كونه ربّاني المصدر: فهو وحي إلهي من الله تعالى على يد جبريل الأمين، مطبوعا في قلب النبي، حفظا راسخا لا يتغير ولا يتبدل، ومنه قوله تعالى: ((إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحَافِظون))الحجر آية 9. وهذه المصدرية تصبغ تشريعاته بالأصالة والسلامة والإحكام والصلاحية لكل زمان ومكان.

2-كونه إنسانيّ النزعة: مرتفعا عن أية نعرة عنصرية، جنسية أو قبلية أو إقليمية.. وإنما هو للناس قاطبة، يبتغي لهم اليسر ورفع الحرج سواء في نطاق العبادات أو العقود والمعاملات.. مصداقا لقوله تعالى: ((يريد الله بكم اليسرَ ولا يُريدُ بكم العُسر))البقرة آ185.

3-التوازن والوسطية: فيه التوازن بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة: أو مصلحة الفرد و الجماعة، فلا يذوب الفرد في الجماعة ولا طغيان لأحدهما على الآخر ((والسماء رفعها و وضع الميزان ألاّ تطغَو في الميزان))الرحمن آ7-8. ومن مظاهر هذا التوازن إقرار الملكية الخاصة والحفاظ عليها مع جعلها ذات وظيفة اجتماعية توجه نحو خير الجماعة، وهذا يستدعي في أذهاننا فكرة توجيه رأس المال في نظرية ابن نبي الحضارية. وغير هذه النماذج كثير سيحين أوان ذكرها في التطبيقات التاريخية

للتشريع القرآني. كما فيه التوازن بين الترغيب والترهيب فهو تشريع يأمر بالمعروف ويُرغّب فيه وينهى عن المنكر ويُنفّر منهو يزجر فاعله، لأن غايته أن يحقق في المجتمع شيئين متوازيين هما: درء المفاسد وجلب المصالح.

4-التكامل والشمول: فالتشريع القرآني لا يقتصر على العلاقات الاجتماعية وحدها منعزلة عن الرقابة الإلهية والاعتبارات الأخلاقية، بل هناك تلازم وتوسع نحو شبكة من العلاقات التلازمية أساسها علاقة الفرد بخالقه، وبنفسه وكذا بمجتمعه. كما أنه متلازم الصّلة بين العقيدة والعبادة والشورى، كما قال تعالى((والذين استجابوا لربّهم وأقاموا الصّلاة وأمرهم شورى بينهُم ومِمّا رزَقناهُم يُنفِقون))الشورة آ 38. شامل لقضايا الفرد والدولة انطلاقا من العلاقات الأسرية ووُصُولا إلى العلاقات الدّولية.

5-المرونة: فبناء على الوضع التشريعي في الإسلام الذي يقضي بجواز الاجتهاد في تفهّم المراد من النصوص من جهة ومن جهة أخرى الاجتهاد لاستنباط الأحكام الشرعية للوقائع المُتجدّدة والتحديات المستجدّة عبر الزمان والمكان.

وتأتي السّنة النبوية الشريفة في تأسيساتها المجتمعية الأولى، لتُبيّن لنا أوجه التطبيق الفعليّ والمثالي للتشريعات الرّبانية في المجتمع الإنساني.

صور من تطبيقات النظّم القرآنية في الحضارة الإسلامية

-النّظام السّياسي-

بما أن الدولة هي وسيلة تأسيس المُدن وبناء الحضارات، عن طريق بسط حكومتها، فإننا سنتطرق أوّل الأمر إلى النّظام السّياسي في تاريخ الحضارة الإسلامية، فالسّياسة تمثّل قمّة التفاعل بين العلاقات في المجتمع الواحد، وتطوُرُها في الحضارة الإسلامية، جاء مرتبطا بمستوى وعي(فقه) الأحكام الشرعية وتطبيقها على مستوى الأفراد والجماعات (وهو ما يسمى بالسياسة الشرعية، بوازع الحُكم أو السلطان "فما لم يكن الحاكمُ الوازعَ أفضى ذلك إلى الهرج المؤذن بهلاك البشر وانقطاعهم، مع أن حفظ النوع من مقاصد الشرع الضرورية"[1]. وعلى عاتق النظام السياسي تقع مسؤولية تطبيق بقية النّظُم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية.

النُّظُم السياسية في الحضارة الإسلامية:

1-الخلافة:

إن أوّل تحدّ واجه الحضارة الإسلامية بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)-تبعا لنظرية تونبي الحضارية- هو تحدي الخلافة وكيفية وضع نظام لها، إذ لم يكن من السهولة أن يخلف الرسول (ص) شخص معيّن، وهو لم يوصي صراحة بالخلافة لأحد.. "والخلافة في لسان المسلمين، وتُرادفها الإمامة، هي رياسة عامّةٌ في أمور الدّين والدّنيا نيابة عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)"[2] أو هي كما قال ابن خلدون:" خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدّنيا به"[3]. وتقع على عاتق الخليفة مسؤولية تطبيق الشرائع أو النّظم القرآنية..

ويبدأ بناء نظام الخلافة أول ما يبدأ باجتماع سقيفة بني ساعدة، حيث تم الإجماع بعد التشاور والتداول عملا بمدئ الشورى، في قوله تعالى((وأمرهم شورى بينهم)) الشورى آ 38، فأجمعوا على خلافة الصحابي الجليل أبي بكر الصديق، لأسباب كثيرة –منطقية- منها كون أبي بكر أول رجل دخل الإسلام، وأكثر الناس صحبة لرسول الله... وأنه أمّ الناس في الصلاة أثناء مرض رسول الله (صلى الله عليه وسلم)... وما إن تمّت البيعة للصديق حتى قابلته تحديات جديدة، قابلها هو الآخر باستجابات يستدعيها الحافظ على نظام الدولة و وحدتها.. كحروب الرّدة (مع مانعي الزكاة ومدعي النبوة)وبعد ضمان

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص 366.
[2] علي عبد الرزاق :"الإسلام وأصول الحكم، ص113.
[3] مقدمة ابن خلدون، ص180.

الاستقرار الداخلي من جديد، توجه الخليفة الراشدي نحو توسيع نطاق الدولة، ونشر دعوة الإسلام خارج حدودها.. لتستمر الفتوحاة طيلة عهود الخلفاء الراشدين وما يليها.

وكان من شروط الخلافة: العلم والعدالة والكفاءة وسلامة الحواس والأعضاء ، وفي نظام الخلافة برزت اخلافات كثيرة بين العلماء، خاصة ذلك الشرط المتعلق بالنسب القرشي، فكان رأي الجمهور اشتراطه، كما ورد في كتاب الماوردي، بينما ذهب فريق آخر إلى عدم اشتراط النسب القرشي، ومنهم الأنصار ومن بعدهم الخوارج، واعتمدوا فيما ذهبوا إليه على الآية الكريمة((إنّ أكرمكُم عند الله أتقاكم))، وقوله (عليه الصلاة والسلام) ليس لعربي على عجميّ فضلٌ إلا بالتّقوى))، وذهب ابن خلدون إلى أن هذا الشرط كانت العلة فيه العصبية التي بها يكون اجتماع الكلمة، فإنه يسقط بضعفها.

أما طريقة اختيار الخليفة فتعتد على نظام الشورى، عملا بالأوامر العامة التي وردت في الكتاب الكريم، التي تتناول الخلافة وغيرها، كقوله تعالى((وأمرهم شورى بينهم))الشورى 38. وقوله عز وجل: ((واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)) آل عمران 103. دون ورود نص قطعي عن طريقة تعيين الخليفة، كأن الشريعة أرادت أن تترك الأمر للمسلمين يختارون من نُظُم الحكم ما يلائم أحوالهم.

فكان الاجتهاد قائما على ثلاثة طرق:

أما الأولى فطريقة الانتخاب الاستشارية بين الأعيان من الصحابة، الأنصار منهم والمهاجرين وهو الذي حصل في سقيفة بني سعد.

وأما الطريقة الثانية فهي طريقة العهد، وهي أن يعهد الخليفة إلى شخص آخر بعده على أن يضاف إلى هذا الترشيح، شرطي الاستشارة مع أهل الحل والعقد، وكذا موافقة العامة ورضاهم على ما اتفق عليه أهل الحل والعقد وهكذا عين عمر (رضي الله عنه).

وأما الطريقة الثالثة فهي ترشيح أشخاص كثر بدلا من شخص واحد، يتم الاختيار فيما بينهم بالتراجح وهكذا عُيّن عثمان (رضي الله عنه).

ولكنّ الأمر اختلف بعد مقتل الإمام علي كرم الله وجهه، وتنصيب معاوية بن أبي سفيان، وتحولت الخلافة غإلى ملكٍ يؤول إلى صاحبه بالقوة والسياسة، وبذلك ظهر نظام التوريث حيث تؤخذ البيعة لولي العهد من وجهاء الناس وكبار القواد!

وكان الخليفة بعد أن تتم البيعة له يخطب في المسلمين خطبة يبين فيه منهجه الذي يعتزم السير عليه في سياسته للمسلمين.[1]

[1] يُنظر: أبو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي، ص71-77

محاضرة: أُسس نظام الحكم في الإسلام

تقوم سياسة الدولة في الإسلام على تحقيق كرامة الإنسان، وحرّيته تبعا للتصور القرآني، المُلخّص في قوله تعالى((وكرّمنا بني آدم))، وهذا الإنسان تكفل له حكومة الدّولة كرامته مهما كان عرقه أو عقيدته في ظلّ قوانين ربّانية عادلة، لا يُظلم فيها أحد.

الأسس الرئيسية للحكومة الإسلامية:

أولا- العدل: عملا بقوله تعالى ((وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)) النساء 58. وقال النبيّ محمد (صلى الله عليه وسلم): "عدل ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنةً، قيامُ ليلها وصيام نهارها" (جامع السعادات، ج 2، ص 219)

فسعادة الأمّة لا تكتمل إلا بعدل حاكمها.

ثانيا- المساواة: وهي أنواع، منها **المساواة الاجتماعية**، إذ لا مفاضلة بين النّاس إلا بالتقوى، والعمل الصّالح، قال تعالى:((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسولُهُ والمؤمنون)) وهذا هو مدار النّظريات الحضارية عند كلّ من ابن خلدون وهو عنده (أي العمل الصالح) يُقابل مصطلح "الكسب" ، وعند مالك بن نبي هو مُلخّصٌ في عبارة "المنطق العملي" التي سبق تفصيل القول حولها.

ومن أنواع المساوات، المساواة أمام القانون، فالدولة العادلة تستمد سلطانها من القانون، والإسلام من منظور التنزيل الحكيم، يُفرّق بين السلطة و والدّولة، ويجعل السّبطة خاضعة للقانون، وليس العكس، كما يأمر بأن لا تكون الطاعة إلا للقانون مهما كان نوع الحكم، وهذا يقضي بفصل السلطات عن بعضها البعض، وهو صلب مبدأ الشورى في القرآن الكريم.. الذي ينتقل من الأفراد إلى المؤسّسات. والنبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، هو أوّل من أرسى مبدأ الفصل بين السلطات في التجربة الأولى للدّولة المدنية عبر التاريخ، حيث كان (ص) يقضي بين الناس على ضوء التشريع القرآني، ليبين للناس أن الطاعة للقانون وليس للأشخاص، وأنه عليه الصلاة والسلام، مُطاع بحكم تأييده بالرسالة، وهذا واضح في قوله تعالى: ((ومن يُطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولىّ فما أرسلناك عليهم حفيظا)) النساء 80. وكان هذا هو ديدن الرسل جميعهم، ومنه قوله تعالى: ((يا داوود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى فيُضِلّك عن سبيل الله)) سورة ص 26.

كما يُصوّر النبي الكريم في سيرته أروع معاني المساواة بين الرؤساء والمرؤوسين، ومثال ذلك، ما حدث حين تقاضاه (ص) غريمٌ له فأغلظ عليه، فهمّ عمر بن الخطاب (غضبانا)، فأنكر عليه النبي (ص) ذلك وقال له: "مَه يا عمر كنتُ أحوج أن تأمُرني بالوفاء، وكان أحوج أن تأمرهُ بالصّبر"[1]

ثالثا- ضمان الحريّات: وعلى رأسها الحرية العقدية، عملا بقوله تعالى: ((لا إكراه في الدّين)) وقوله تعالى: ((فذكّر إنما أنت مُذكّر لست عليهم بمُصيطر)) لذلك "نجد أن الخلقاء الراشدين، في تاريخ الحضارة الإسلامية قبلوا الكنيسة النّصرانية والكنيس اليهوديّ، في المدن التي كانوا أسيادها"[2].

ثمّ تأتي الحريّة السياسيّة، وتعني حرية تقلد المناصب لأصحاب الكفاءة، وبمطالعة صفحات من تاريخ الحضارة الإسلامية نجد أن قبول الدولة الإسلامية باليهود والنصارى –الباقين على ملّتهم- كان يصل بهم إلى أعلى المناصب في الدّولة، كإدارة بيت الحكمة في عهد الخليفة المأمون من قبل الطبيب النّصراني حُنين بن إسحاق.. كما أن المناصب لم تكن تُمنحُ على أساس القربى ولا المُحاباة في عصور الدولة الإسلامية الزاهرة.

[1] حسين الحاج حسن، النّظم الإسلامية، ص 49، نقلا عن زاد الميعاد، ج 1، ص 95.
[2] روجي غارودي، "وعود الإسلام" ، ص 52.

محاضرة: الدّعائم الدينية والأخلاقية للدّولة الإسلامية

تلك الأسس، هي ميزات في نظام الحكم الإسلامي، من شأنها أن تخلق التوازن والتناغم بين الدّولة والفرد، وكذا التعاون.. هذا التعاون يتمّ بحسب مالك بن نبيّ أوّل الأمر على أساس عقدي يغرس في الفرد والمواطن القابلية والاستعداد للتضحية، وهذه هي الوظيفة الاجتماعية للدّين في نظرية الأستاذ بن نبي، كما أن العامل الثاني الذي يخلق التجانس بين عمل الأفراد وعمل الدّولة هو عامل الأخلاق لأنّ السياسة بدون أخلاق فيها خراب للأمم.

و من بين هذه الدّعائم الدينية والأخلاقية الضرورية لبناء الثقة بين الدولة والمجتمع في الحضارة العربية الاسلامية، نجد:

أولا- حسن المعاملة بين الرئيس والمرؤوس او بين الخليفة والرّعية: وفي سيرة النبي الكريم، وقصص الخلفاء الراشدين الكثير من هذه النماذج، التي يلخّصها قول النبي الكريم للأعرابي: "هوّن عليك إنّما أنا ابن امرأة كانت تأكل القدّيد في مكّة" أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

ثانيا- الطاعة لأولي الأمر ما داموا في طاعة الله تعالى: وما دام الحاكم منضبطا بضوابط الشريعة الإسلامية.. ويؤكّد حدود مبدأ الطاعة، الخليفة أبو بكرٍ الصّديق، في قوله :" أطيعوني ما أطعتُ الله ورسوله".

ثالثا- النزاهة والكفاءة والحنكة السّياسية: وهي صفات مطلوبة في رجل السلطة المسلم، وها هو ذا الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يعزل أمين الأمة عبيدة بن الجراح (ر ض) لا لنُقصٍ في نزاهته أو في كفاءته، ولكن لفطنة في الحرب، فاقه فيها خالد بن الوليد.

رابعا- النّقد الذّاتي: و يضرب مثالا على ذلك مالك بن نبي في كتابه "آفاق جزائرية" بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي أحسّ نشوة الحكم، فما كان منه إلا أن استدعى الصحابة رضوان الله عليهم، ليقول لهم ما مفاده أنه لا يعدو كونه مجرد راعي ماشية جعل منه الإسلام أميرا!

خامسا- التواضع السّياسي: حيث يتساوى أمام واجبات الحاكم المسلم، الأغنياء والفقراء والأعيان والعامّة من النّاس، وما قصّة عمر بن الخطاب (ر ض) مع المرأة التي خطّأته أمام الملأ إلّا مثال واحد على ذلك.. كما يقضي هذا التواضع التنازل عن السّبطة لأجل مصلحة الأمّة.

ملاحظة: يُنظر للاستزادة في موضوع المحاضرتين في المراجع التالية:

د. حسين الحاج حسن: النُّظُم الإسلامية، ط1، 1987.

د. يوسف حسين: نقد مالك بن نبي للفكر السياسي الغربي الحديث، دار التنوير، ط1، 2004.

روجي غارودي: وعود الإسلام، دار العالمية للطباعة والنشر، ط1، 1984.

أستاذة المقاس جنّان فاطمة الزهراء.

النظام الإقتصادي في الحضارة الإسلامية

التأسيسات الأولى للنظام الإقتصادي في الحضارة الإسلامية:

عمل الاسلام منذ بداياته الأولى في حكومة النبي صلى الله عليه وسلم على إرساء أسس خاصّة –تخالف النّظم السائدة- في باب إدارة المال والاقتصاد، وما إضافاتُ الفقهاء وتفريعاتهم في باب النّظم إلا تفريعات و امتداد لبعض الوقائع الجزئية التي حدثت على عصر النبيّ (ص).. إذ كان عصر النبيّ نقطة الانطلاق لكلّ ما عُرف في الاسلام من نظم وقوانين. ويمكن تلخيص أسس النظام الاقتصادي الاسلامي في مجموعة مقولات عامةٌ:

إلغاء الرّق عن طريق الكفّارات

توزيع المال عن طريق الأُعطيات (وتدوينها في دواوين لاحقا)

إرساء قواعد التكافل والمساواة الاجتماعية عن طريق الصّدقات وعلى رأسها الزّكاة، وكذا الأوقاف.

فكانت سياسة المال في عهد النبي (ص) ومن تلاه من الخلفاء الراشدين، سياسة تكفل العدالة الاجتماعية وتوزّع ثروة المجتمع بالمساوات. وقد حرص عليه الصلاة والسلام على تطبيق تلك المقولات بتفصيلاتها في كلّ فرصة وفي كلّ واقعة. ولاشك أن القرآن الكريم عمل بآياته المباركة على إرساء تلك الدعائم، وما عمل الرسول عليه السلام إلا تطبيقات صارمة لتلك التعليمات القرآنية، وعلى رأسها تحجيم الملكية وتنسيبها، عملا بقوله تعالى **((لله ما في السّماوات وما في الأرض))** البقرة 284، فالملكية في النّظام الاقتصادي الاسلامي تستند لله تعالى وترجع إليه، وليس حقا لا لمجموعة ولا لدولة –كما كان الحال في النظامين الروماني والفارسي- بل هي وظيفة اجتماعية، وعلى المالِكِ كائنا من كان أن يُقدّم حسابا عن ملكيته إلى الجماعة، لأنه ليس سوى مديرها المسؤول. بيد أنّ الإسلام يُقرّ الملكية الشخصية المُكتسبة

بالعمل أو الإرث أو الهِبة، ولكنّ العمل يقوم بالدّور الرئيسي، وقد حدّد حديث نبوي هذا بدقّة :" إنّ الأرض لله ولمن يعمرها" أو كما قال صلى الله عليه وسلّم.

كما أن مفهوم السوق باعتباره عاملا اقتصاديا مهما لقيام المجتمعات، عرف تغيرا جذريا في الاسلام، حيث تلتقي فيه القيم الاقتصادية و القيم الخُلقية، و هو وسيلة لا غاية، يُمنع فيه الاحتكار والجشع والربا منعا باتا، ومنه ظهر أول ما ظهر نظام **الحِسبة**، وهو ابتكار إسلامي، ويعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم أوّل المحتسبين في تاريخ الحضارة الإسلامية، فعن أبي هريرة أن رسول الله مرّ على صُبرة طعام (أي كومة من الطعام) فأدخل أصابعه فيها فنالت أصابعه بللا، فقال : ما هاذا يا صاحب الطّعام؟ قال: أصابته السّماء يا رسول الله، فقال (ص) : " أفلا جعلته فوق الطّعام كي يراه النّاس، من غشّ فليس منّي" (مسلم* كتاب الإيمان باب قول النبي من غشنا فليس منّا) كما استعمل النبي (ص) محتسبين من الصحابة كسعيد بن سعيد بن العاص الذي جعله على سوق مكةّ، و كسمراء بنت نهيك التي كانت تمر على الأسواق في عهد النبي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب بالسوط، وقد كان عمر رضي الله عنه محتسبا، يراقب الأسواق بنفسه، ويشرف على المحتسبين، ثم اتسع هذا المفهوم بتوالي العهود الاسلامية، ولم يعد حكرا على الأسواق بل على كافة المعاملات في الدولة الاسلامية، حتى أصبح كثير من المحتسبين يقيم الحدود، ويوقع العقوبات على الأمراء والسلاطين المخالفين، شأنهم في ذلك شأن الرعية! فما أحوجنا لمحتسبين في هذا الزّمان!؟

نُظم اقتصادية في الحضارة الإسلامية:

***الزّكاة:** هي أوّل ضريبة إسلامية فُرضت على الأغنياء والقادرين، ويعد مال الزكاة الذي يُدفعُ للفقراء حقا واضحا لهم بنصّ الآية الكريمة: **((والذين في أموالهم حقٌّ معلوم للسائل والمحروم))** المعارج 24-25، ثم أمر الله تعالى نبيه الكريم، أن يأخذها من أموال الأغنياء كي يردّها إلى الفقراء **((خُذ من**

أموالِهِم صدقةً تُطهّرهم وتُزكّيهم بها)) التوبة 103. ويُشترطُ لإعطائها شرطان، هما بلوغ النّصاب، ومرور الحول. وهي ضريبة مفروضة ليس على الرّبح فقط بل على رأس المال، وتُتيح بالتالي إجراء تحوّلات اجتماعية، وهذا الشكل الأولي عن الضمان الاجتماعي لم تصل إليه بعض الدول الغربية كفرنسا إلا في منتصف القرن العشرين!

والزكاة أنواع كثيرة، منها زكاة الأموال، وزكاة الزروع والغلاّة من الثمار وكذا الحبوب، وزكاة المواشي بأنواعها، ولكلّ زكاة مقدار، وفيها تفصيل طويل في كتب الفقهاء.

***الخراج:** هو مقدار من مُخرجات الأرض التي فتحها المسلمون إمّا عنوة أو صُلحا،(إما نقدا أو غلال) يذهب لخزينة مال المسلمين، وقد كان من عادة الخلفاء أن يُشرفوا بأنفسهم على جِباية مال الخراج، وفي حال الشّك في أمر الجُباة، كانوا يُحاسبون على ما جنوا، مُطبّقين في حقّهم دون تحيُّز مبدأهُم القائل:" من أين لك هذا؟، وهذا ما اصطُلِح عليه لاحقا بنظام "المُقاسمة".

* **الجِزيَة:** هي مبلغ من المال يوضع على الرّؤوس لا على الأرض كما في الخراج، يدفعهُ الذّمّيون في البلاد المفتوحة، وهي تُؤخذ من ثلاثة أصناف بنسب متفاوتة:

1 الأغنياء

2 المتوسطون

3 الفقراء من أصحاب الحِرف.

ولا تؤذ من المساكين والعاجزين والمقعدين ولا على المجنون والأعمى ولا المعاق ولا الرّهبان في الأديِرة ولا المرأة ولا الصّبيّ ولا العبد المملوك.

***الوقف:** هو عمل من أعمال البرّ يريد به الواقف وجه الله، ويرجو به توازن المجتمع على أفضل الوجوه. وكثيرا ما يأخذ الفيء صفة الوقف، وقد أعطاه النبي (ص) في غزوة النّظير للمهاجرين الفقراء

دون الأنصار الأغنياء ما عدا رجلين فقيرين منهم، رغبة منه عليه الصّلاة والسّلام في إعادة التوازن الاجتماعي بين المهاجرين والأنصار، عملا بقوله تعالى: **((كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم))** علاجا للتفاوت الاجتماعي الملحوظ.

***نظام التوريث الإسلامي:** وقد فصّل الله تعالى القول فيه في سورة النّساء، كوسيلة لتفتيت الثروات الكبيرة أو رؤوس الأموال، وإيصال النّفع لمختلف الأقرباء مع ملاحظة درجة القربى من المتوفَّى.

ما يمكن استنتاجه مما سبق أن نظام الاقتصاد الاسلامي هو نظام يحقّق العدالة الاجتماعية ويبني مجتمعا متساو ومتسام في الآن نفسه، فما أحوجنا إلى العودة إليه، وما أجدره بأن يكون نظاما عالميا وسطا بين حدّي الرأس مالية والاشتراكية.

يُنظر للاستزادة:

روجي غارودي: وعود الإسلام.

الدكتور صبحي الصّالح: النّظُم الإسلامية نشأتُها وتطوّرها.

الدكتور راغب السرجاني: مقال نظام الحسبة في الحضارة الإسلامية. موقع قصّة الإسلام.

أستاذة المقياس

د. جنّان فاطمة الزّهراء.

النّظام الاجتماعي في الحضارة الاسلامية

إنّ النُّظُم السّياسية والنّظم الاقتصادية في الحضارة الاسلامية ذاتُ أهداف سامية، على رأسها تحقيق المساواة الاجتماعية والسّهر على حمايتها، بما يكفل توازن المجتمع واستمراريته، واستِقراره، ذلك أنّ اختِلال النّظامين السّياسي أو الاقتصادي أو كليهما سيؤدّي بالضّرورة إلى خلق مشاكل اجتماعية جسيمة، من تفاوتٍ طبقيّ وصراعاتٍ طبقيّة، ناتِجةٍ عمّا قد يكون استبداداً يجرّ احتكارا ثمّ غنى باذخا لطبقةٍ من المُترفين هم في الغالب طبقة الحُكّام و بطانتهم، وفي المقابل تخلق طبقة مُعدمة، فقيرة تتولّد فيها بالتّقادم روح الثّورة والسّخط وهو ما يسميه أرنولد تونبي بالتحدي الداخلي أو النقمة الاجتماعية! فالظلم كما يقول ابن خلدون "مؤذِنٌ بخراب العمران"، وهو يجرّ الحضارة نحو آخر مراحلها، مرحلة الانحلال والجمود وقلّة الروح المُبدعة.

بينما يضمن التّنظيمُ السّليم للعلاقات، بين الأفراد، وبينهم وبين الدّولة، يضمن السّلم والعيش الكريم، وهما المطلبان الرّئيسيان لقيام الجماعة، ومنه قوله تعالى في سورة قريش: **((فليعبدوا ربّ هذا البيتِ الذي أطعمَهُم من جوعٍ وءامَنهم من خوف))**. كما يكفل العدالة الاجتماعية، وهذا هو بالتّحديد صُلب النّظام الاجتماعيّ الاسلامي، والذي يقوم على مجموعة من الأسس، أهمّها:

1- **العدل المطلق بين النّاس،** بدءا من نظام الحكم الشُّوريّ، وتقلّد المناصب بالكفاءة، وصولا إلى **الحكم بين النّاس بالعدل،** لا على أساس عرقيّ، أو قرابة عائلية، أو تعصّبٍ

سياسيّ، عملا بقوله تعالى: **((وإن حكمت بين النّاس فاحكُم بينهم بالقِسط))** وقوله تعالى: **((يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شُهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين))** النّساء. و وقائع الحّكام المسلمين منذ عهد النّبي (صلى الله عليه وسلّم) أكثر من أن تُحصى.. ومنها على سبيل المثال حكم عمر بن الخطّاب لليهوديّ بذرعٍ جاء يتخاصمُ عليها، هو و عليّ (كرم الله وجهه). كما أن النظام الاجتماعي الاسلامي أعطى لأهل الذمة وهم المعاهدون من اليهود والنصارى الذين يعيشون في بلاد الاسلام، وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنّ النبيّ (ص) أعطاهم ذمّته وأمانته وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيرا، و قد تساووا في الحقوق مع المسلمين لدرجة أنهم تقلّدوا في تاريخ الحضارة الاسلامية أرقى المناصب الإدارية والوزارية. ومن الشهادات البارزة، ما قاله آدم متز في كتابه "الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري" : " ومن الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال غير المسلمين في الدولة الاسلامية، فكان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين في (بعض) بلاد المسلمين.."!

و من العدل كذلك، اشتراط العدل في الشّهادة، ومنه العدل في منح الأُعطيات وتقسيم الأموال.

2- **صيانة الأعراض**: بتعزير القاذِف، ومنع اقتحام البيوت، والنّهي عن التّجسّس والغيبة والنّميمة، والتّشدّد في فاحشة الزّنى، والدّعوة إلى اجتناب الشّبهات. والحثّ على الزّواج والتّرغيب فيه، وتنظيم شؤون الأسرة، على عكس ما كان سائدا في اليوتوبيات المجتمعية اليونانية والرّومانية، من شيوع الجنس والمرأة واختلاط الأنساب وتفشي الفوضى!

كما صان الإسلام في إطار المُساواة كرامة المرأة في أسرتها، بعد أن طالها الظّلم والوأد في الجاهلية، فكرّمها أُمّا وزوجةً وأُختا وبِنتاً، وفرضَ في الأسرة حقوقا و واجبات متبادلة. وإذا قارنّا بين القواعد القرىنية، وقواعد المجتمعات السّابقة له، نجد بأنّها تدلّ على تقدّم أكيد، وبخاصّة بالنّسبة لأثنا وروما اللتين كانت المرأة تعدّ فيهما قاصِرة إلى الأبد بينما تملك المرأة في القرآن الكريم الحقّ بالمُساواة الاجتماعية، والمِلكيّة الشّخصية، والإرث –بعد أن كانت تُورثُ مع المتاع!_ وحقّ طلب الطّلاق، هذا الحق الذي لم تكسبه المرأة في الغرب إلاّ بعد ثلاثة عشر قرنا من بعد نزول الرّسالة المحمدية.

خلاصة القول بالنسبة للنّظام الاجتماعي في الإسلام أنه كرّس التوازن داخل المجتمع بين سائر طبقات المجتمع، ما جعل الحضارة الاسلامية تعمّر طويلا.

للاستزادة في موضوع المحاضرة ينظر:

آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري" ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة.

الدكتور حسين الحاج حسن، "النُّظُم الاسلامية".

روجي غارودي، "وعود الإسلام".

أستاذة المقياس

د فاطمة الزهراء جنّان